سراب العلم

(الوَاصِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ العَارِفِينَ،
وَالعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الفَاعِلِينَ)

ابن المقفَّع (١٤٢هـ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
«اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ».
أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٦٤).

(١)

من محفِّزات الطالب للتحصيلِ العلميِّ والاستزادةِ منه امتلاكُه للسؤالات والإشكالات المستفِزَّة، وكلَّما كانت أرضُ تحصيله حافلةً بالسؤالات كانت أقبَلَ لمياه العلم، بَيْدَ أن الأمر ليس مقصورًا على وجود ما هو (سؤالٌ) فحسب، بل المقصودُ أن يكونَ السؤال مما يبحث غاياتِ العلمِ ومقاصدَه، إذ بالبحث في الغايات يرتاضُ الطالب بجوهر العلم ويتمكَّنُ من حقائقه، غيرَ أنَّا إذا تأمَّلنا السؤالاتِ الفاعلةَ في الميدان العلمي المعاصر وجدنا كثيرًا منها دائرًا خارجَ إطار البحوثِ الغائيَّةِ، ولو استقرَيْنا سيلَ السُّؤالاتِ الموجَّهةِ إلى أهل العلم من لدن طلاب العلم في الآونة الأخيرة وجدنا كثيرًا منها يصبُّ في وسائل العلم لا غاياته.

واللَّافتُ للنَّظر أنَّ السؤال في هذا الباب لا يَحلَّقُ على كثرة الردِّ، ولا يقنع الطالب حتى يتحصَّل على جوابٍ خاصٍّ بسؤاله، ولو كان سؤاله مجابًا عنه موجَّهًا من طالبٍ يشترك معه طولًا وعرضًا وعمقًا!

وليتَ الأمرَ يقتصر على الحصول على جواب وينتهي بعد ذلك، أو أنَّ السؤالَ يقع في هامش البرنامج العلمي للطالب، أو أنه ينطوي على إشكالٍ جادٍّ يجعل من حلِّه فتحًا مبينًا للطالب.

ليتَ الأمرَ كان كذلك، ولكنَّ الواقع يدلُّنا على أنَّ الأمرَ ليس مقصورًا على تحصيل جواب، بل أضحى مجرَّدُ السؤال هوايةً علميَّةً للطالب يقضي بها وقتَه، ويديرُ بها مجالسَه، ويباحثُ بها أقرانَه، ويكافحُ بها مَن يلقاه من الأشياخ، حتى صار خبيرًا بطرائق الناس في الإجابة عن تلك الإشكالات الوسيليَّة، ينثر لك الخلاف فيها، ويرجِّح غالبًا ترجيحًا تجريديًّا لم تُنضِجه الخبرة ولم تُسعِفه التَّجرِبة.

والواقع يدلُّنا على أن سؤال الوسائل يمثِّل جوهر برامج كثير من الطلاب، وصار النظر في متين العلم هو الواقعَ في هوامش التحصيل، ودليل ذلك أنك ترى مغناطيس قراءاتهم ليس تلك العناوينَ التي تعالج صلب العلم وتبحث مقاصده، بل مغناطيسها تلك الألفاظُ الرنَّانةُ الباحثةُ في طرائق التحصيل وتقنيات التلقِّي.

والواقع يدلُّنا على أن الأمر لا ينطوي على إشكالٍ جادٍّ، وإلَّا فلو كان كذلك لأعقب الجوابَ عنه عملٌ بموجَبه، ولكنَّ الواقع بخلافه، فزيدٌ السائلُ عن المفاضلة بين ألفيتَي العراقي والسيوطي في علوم الحديث مرَّت عليه سنونٌ دون أن يحفظ واحدةً منهما، وزيدٌ المقابِلُ بين تفسيرَي «الجلالين» و«البيضاوي» مرَّت عليه سنونٌ دون أن ينهيَ أحدَهما، وزيدٌ المردِّدُ النَّظرَ

بين مسارَي الحفظ والفهم مرَّت عليه سنونٌ وهو ما زال يقطف أوراق وردة التردُّدِ، وهَلُمَّ جرًّا.

(٢)

تأمَّلتُ في باعث وجود هذا الفصيلِ الوسيليِّ من الطلبة، وكيف صار لتعاطيهم مع العلم منهجٌ تحصيليٌّ وخطابٌ خاصٌّ، ولماذا استوطن مشروعُهم حِمَى العلم دون أن يرتعوا فيه = فبان لي أنَّ لهذا الاهتمام بوسائل العلم دون غاياته بواعثَ عدَّةً، على رأسها باعثان امتزجا فأفرزا هذا الفصيل، وهما: حبُّ العلم والرغبةُ في تحصيله، صعوبةُ العلم وفتورُ العزم عن مكابدته.

فحبُّ العلم هو الذي جعل اهتمام هذا الفصيل يتحرَّك في ميدانه، ومهابةُ العلم وتحاشي مشاقِّه هو الذي أخَّر تلك الاهتمامات عن صلب العلم وقذف بها في معترك الوسائل تسليةً للنفس وتزجيةً للوقت. والشأن كما قال الإمام أحمد (٢٤١هـ): (إنَّما العلمُ مواهبُ، يؤتيه الله مَن أحبَّ مِن خلقه)[1].

ومن اللَّافت للنظر أنَّ غالبَ المتصدرين للحديث عن وسائل تحصيل العلم ليسوا من أولي التحقيق فيه ولا من طلبة العلم الجادِّين الذين تمثَّل

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١: ١٧٩).

مشاريعُهم براهينَ صدقٍ لسؤالاتهم، وهذا يقدح شرارة التأمُّل عند من فُتِن بمثل هذه المداولات، وإذا تأمَّلتَ خطاب المحققين من المحصِّلين وجدتَه يُعنى بالـمُحكَم من الوسائل، وما عداه يُشار إليه إشارةً معقولةَ الوزن، ولستُ أعني بذلك نَبْذَ الحديث عن وسائل التحصيل ظِهريًّا، لكن لا بُدَّ أن ندركَ دنوَّ رتبته عن البحث في غايات العلم .. وطالبُ العلمِ الحقُّ هو مَن يأنسُ بالبحث (في) العلم أشدَّ من أنسه بالحديث (عن) العلم، وكثيرٌ من المتسبين للطلب إنَّما هم طلَّابُ حديثٍ عن العلم لا طلَّابُ بحثٍ فيه.

والمتصفِّحُ لغالب المقارنات الواقعة بين التقنيات التحصيلية والمتون التعليمية يدرك أنَّها قائمةٌ بين فاضل ومفضول، وتحديدُ ما هو فاضلٌ ومفضولٌ خاضعٌ لاعتباراتٍ عدَّةٍ تجعل منه أمرًا نسبيًّا يتفاوت بتفاوت الأشخاص والبيئات، وتَقَصِّي ما بين الفاضل والمفضول من نسبة النَّفع وقطعُ الزمن بذلك ترفٌ مذمومٌ، فلا حاجةَ إلى مدِّ الحديث عنه مدًّا يعود بالضرر على النظر في حقيقة العلم ومقاصده.

ثم إنَّ طلاب العلم ليسوا على شاكلة واحدة من حيثُ التهيُّؤُ النفسيُّ والاستعدادُ الذهنيُّ، والنَّظر في الوسائل لا بُدَّ أن يكون مراعيًا لذلك، وهذا يجعل لكلِّ طالبٍ شيئًا من الاجتهاد في تحديد وسائل تحصيله، ويُصَيِّر من النماذج الوسيلية السابحة في الفضاء العلمي مجرَّدَ مقترحاتٍ ونماذجَ للتحصيل، وعليه فمن الغلطِ على العلم وعدمِ النصح لطلابه كثرة الإتيان بـ(أفعل) التفضيل دون سبقها بـ(مِن) التبعيضية حين الحديث عن مقترحات التحصيل ونماذجه.

(٣)

حفظُ العلم وضبطُه، والترقّي في تحصيله، والتلقّي عن أشياخه العارفين به، ومذاكرة الأقران النابهين، واستشراحُ ومدارسةُ المتون والكتب المعتمدة عند أهل كل فن .. هذه ونحوها هي محكماتُ الوسائل.

أمَّا:

- هل يحفظ الطالب هذا المتن أو ذاك؟
- هل يحفظ نثرًا أو نظمًا؟
- هل يحفظ المتن قبل استشراحه أو بعده؟
- هل يقدِّم النظر في هذا العلم أو ذاك؟
- هل يدرس علمًا على وجه الاستقلال ثم ينتقل إلى غيره أو يجمع بين علمين في وقت واحد؟

ونحوها من السؤالات فلا ينبغي أن تُجاوِزَ قدرَها من اهتمامات طالب العلم، ولا أن تأخذَ من عمره شهورًا، وقد أخذتْ - وللأسف - من عمر كثيرين أعوامًا!

وقد فُتِنتُ كما فُتِن لِدَاتِي بالإغراق في سؤال الوسائل، ومع قناعتي بأني أهدرتُ جزءًا كبيرًا من وقتي في الإجابة عنه إلا أني لم أستطع حتى ساعتي هذه أن أتخلَّص من بعض تَبِعَات ذلك الإغراق، فقد أضحى جزءًا من تكويني ما زلتُ أدافعه.

أذكر أني جلستُ شهرًا معطّلًا عن التحصيل والقراءة من أجل إحكام خطة علمية تمتد ثلاث سنين .. وفعلًا، كتبتُ وجدولتُ، ثم طفت بمساجد الأشياخ لأعرضها عليهم، وأخذ كلٌّ منهم يدلي بدلوه، حتى تلقَّفني شيخٌ وقلب الأوراق بين عينيَّ وكأنما كان يقتل ابنًا لي، وكتب على ظهرها عنوانًا لكتاب وآخرَ لدروس مسجلة، وقال: اشتغلْ بهذين في البداية!

كانت صاعقةً لي، خرجتُ من عنده وكُلِّي أسًى أن هذا الشيخ لم يُعنَ بما كتبته، ولم يعرف لهمَّتي قدرًا، مضت الشهور فلا أنا بالذي بدأت في إنجاز خطتي، ولا أنا بالذي طبَّقت نصيحة ذلك الشيخ - وقد كان صادقَ اللَّهجة، أمينَ النُّصح - والآن مرَّت تسعةُ أعوامٍ على تلك الخطة وهي حبيسة الأدراج، وستظلُّ كذلك، ولا حاجة لي بها سوى أن تكون ذكرَى تصوِّرُ لي واقع تلك الأيام الخوالي.

(٤)

التكوين العلمي الراشد ليس محتاجًا لإجابات مفصَّلة جاهزة عن سؤال الوسائل، وهو يتأبى على أن تُكتَبَ نهاياته في خطة علمية يرسمها مبتدئ في العلم أو يوصي بها متقدِّمٌ فيه، فإنَّ الحوائجَ العلميَّةَ لطالب العلم تتجدَّد كلَّما ترقَّى في سُلَّمِ التحصيل، ومن هنا ينبغي عليه أن يطمسَ من قاموس سؤالاته كلَّ سؤال يتعدَّى مرحلته الراهنة، لأن السبيل ستستبين له مع كلِّ ترقٍّ، فليست الخطَّةُ العلميَّةُ مما يُكتب بمداد الحبر بل إنَّما تتخلَّق بعَرَق الإنجاز.

ثمَّ إنَّ عليه أن يكون بعيدًا من غيره قريبًا من نفسه وهو يرسم خارطة تحصيله، فـ (إنه عسيرٌ جدًّا على الإنسان - مهما حاول - أن يكون غيرَه) بل (إنَّ خروجَ الإنسان على سجاياه، وانفصالَه عن طباعه العقليَّة والنفسيَّة التي لا عِوجَ فيها أمرٌ يُفسِد على الإنسان حياتَه ويثيرُ الاضطرابَ في سلوكه)(١).

فما بين المحصِّلين من الفروق الظرفيَّة والطَّبْعيَّة، وتفاوت قدراتهم، وما تحتمله فِطَرُهم = يَفرِضُ على كلٍّ منهم أن لَّا يستعيرَ لنفسه خصائص غيره.

قال الجاحظ (٢٥٥هـ): (إنَّما علَّم الله كلَّ طبقةٍ من خلقه بقدر احتمال فِطَرهم ومقدار مصلحتهم)(٢).

وقال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): (إن الله عز وجل لما أراد بقاء العلم لأنه الدليل عليه جعل بين طباع الناس وأصناف العلم مناسبةً جوهريَّةً، وعلاقةً خفيَّةً، فينجذبُ كلُّ طالب علم إلى ما يناسب جَوْهَرِيَّتَه، لينحفظَ بجملتهم العلم)(٣).

وملاحظة هذا المعنى في هذا المقام، بل وفي سائر مقامات التحصيل العلمي = من الضرورة بمكان، فبه يكون الطالبُ أكثرَ تصالحًا مع نفسه، وأجدرَ أن يكونَ له من العلم ما يختصُّ به عن غيره، ولا سيَّما المبتدئ،

---

(١) جدد حياتك لمحمد الغزالي (١٤٨).
(٢) الحيوان (٥: ٢٠١).
(٣) آفة أصحاب الحديث (١٧٧-١٧٨).

فإنَّ مراعاةَ ما عليه طبعُه أكثرُ تأكُّدًا من غيره، لحداثة عهده بالعلم، وذلك أنه (كالطير الوحشي، لا يأنس إلا بالتلطُّف، فإنَّ العلمَ أشقُّ عليه وأمرُّ، فيجب إصلاحُه على ما يقتضيه طبعُه)(١).

ومن أغزرِ النصوص الدالَّة على هذا المعنى، وأكثرِها إشراقًا واحتفالًا = ما نقله أبو حيَّان التوحيدي (٤١٤هـ) في وصف بلاغة أبي الفضل ابن العميد (٣٦٠هـ) بقوله: (سمعتُ ابنَ الجمل يقول: سمعت ابن ثوابة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنَّه تخيَّل مذهبَ الجاحظ، وظنَّ أنه إنْ تَبِعَه لَحِقَه، وإنْ تلاه أدركه، فوقع بعيدًا من الجاحظ، قريبًا من نفسه، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبَّرٌ بأشياء لا تلتقي عند كلِّ إنسانٍ، ولا تجتمعُ في صدر كلِّ أحدٍ، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتحُ قلَّما يملكها واحدٌ، وسواها مغالقُ قلَّما ينفكُّ منها واحدٌ)(٢).

فهذه المفاتحُ وأمثالُها إن لم يوظِّفها الطالبُ ليكون أمثلَ معرفةً بنفسه وإدراكًا لما يصلح لها، وإلَّا فستنصرم أيَّامُه وهو يخطو بحزمٍ .. لكنْ إلى الوراء!

*****

---

(١) منهاج المتعلم المنسوب للغزالي (٦٧).
(٢) الإمتاع والمؤانسة (١: ٦٦).

حاصلُ ما تقدَّمَ أنَّ من أشدِّ ما يقطع على طالب العلم طريق تحصيله هو الإيغالُ في البحث عن إجابةٍ لسؤال الوسائل، فإيَّاك وإيَّاه، وغالبُ من رأيتُهم من أشدَّاء طلاب العلم ساروا في طلبهم بلا منهج في الترقي على نحو ما تحويه الخطط المنهجية التي ازدحمت بها كتب المعاصرين والمواقع الشَّبَكيَّة، وإنما لم أقل (كل من رأيت) تخفيفًا للدهشة!

وليس معنى ذلك أنهم ساروا متخبِّطين، لكنهم لم يسيروا وَفْقَ برنامجٍ مُعلَّبٍ مقدَّم من غيرهم، بل نظروا في حقيقة العلم وصنعوا وسائلهم حسب ظروفهم وطباعهم وقدراتهم لنوال ثمرته.

أمَّا من صرف زهرة طلبه في ملاحقة سؤال الوسائل، فهو بذلك إنَّما يسير نحو سرابٍ من العلم يظن فيه حياةً لطلبه، حتى إذا جاءَه لم يجده شيئًا.

هم العلم

(صِنَاعَتُنَا هَذِهِ مِنَ الـمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ،
فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتْرُكَ عِلْمَنَا هَذَا سَاعَةً
فَلْيَتْرُكْهُ السَّاعَةَ)

محمَّدُ بن الحَسَن (١٨٩هـ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ، وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ».

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» (٢٣٢٢).

(١)

العلمُ باتِّساع فنونه وانتشار موضوعاته يَفرِض على طالب العلم أن يكونَ واعيَ التحصيل بصيرَ التلقِّي، وكثيرٌ من طلاب العلم يملكون الكثيرَ من القدرات والأدوات والأوقات، لكنَّ هذا الكثيرَ يتيهُ حينما يفقد الطالبُ ذلك الوعي وتلك البصيرة، فإن فقدانهما مما يعثِّرُ التحصيلَ ويُعسِّرُه، (وبخاصَّةٍ في هذا العصر الذي أصبح الوقت فيه نَهْبًا مقسَّمًا بين مطالب المدنيَّة وتعقيدات الحضارة، فلا يبقى لراغب العلمِ فيه والثقافةِ إلَّا اليسير من زمنه ليفرغ فيه لما نصب نفسه له، فأصبح بذلك في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى ما يُمَكِّنه من تحصيل الكثير في اليسير من الزمن، وإلى ما يُذَلِّلُ له الاضطلاع بالبحث الطويل الدَّقيق في الوجيز من الوقت)[١].

(١) من مقدمة تحقيق عبدالسلام هارون لكتاب «الحيوان» للجاحظ (١: ٣٦).

ومن هذا الوعيِ أن يَعرِض الطالبُ نفسَه على مسالك الطَّلَبِ وملكاتِه لينظرَ في حظِّه منها، والغفلةُ عن ذلك تُفقِدُه كثيرًا مما كان خليقًا به أن يتمثَّله، وقد لا يشعرُ بذلك، ولا يشعرُ بفقده ذاك الشعورَ، (فإنَّ الشعورَ بالشيء غيرُ الشعور بالشعور) كما يقول الغزالي (٥٠٥هـ)[١].

وطالبُ العلم في قراءتِه وحفظِه وغشيانِه مجالسَ العلم أوَّلَ طلبه يطلب تحصيل مادَّة العلم، تصوُّرًا وتصديقًا، فهو في كلِّ علمٍ يسعى ابتداءً في تلقُّف موادِّه وتحصيل مسائله ودلائله .. هذه مرحلةٌ أولى في طلب العلم، ولهذه المرحلة ملكاتٌ إذا حصَّلها وراضَ نفسَه بها كانت أرضَ بنائه العلمي صلبةً لا تزيلها عن صلابتها عَوَادي الأيام، ومن أخصِّ ملكات هذه المرحلة: قوَّةُ الحفظ، وحسنُ الفهم، وسرعةُ التصوُّر وسلامتُه.

تعقُبُها مرحلةٌ يُعنى فيها بدَرْسِ ما جمعه، ثم ينطلقُ إلى ما وراء ذاك المجموعِ ملاحقًا بقيَّةَ المسائل والدَّلائل بحاسَّةٍ متجدِّدَةٍ تجمَعُ وتقوِّمُ وتستثمرُ، وها هنا ملكاتٌ تتخلَّق وتنمو متى ما التفتَ إليها الطالب وجدَّ في تحصيلها ورعايتها، ومن أخصِّ تلك الملكات: التَّحليلُ، والتَّركيبُ، والمقارنةُ، والتقويمُ.

ثم تأتي مِن بعد ذلك مرحلة الإنتاج بملكاتها من حُسنِ الإبانة عن العلم، وجَودَةِ تصويره، وفِقهِ تعليمه، وإتقانِ كتابته وتدوينه.

وليس من لازم هذا التوزيع لهذه الملكات أن تستقلَّ كلُّ مرحلةٍ بملكاتها، فلا يخلو الطالب في مبتدأ طلبه من تحليلٍ ومقارنةٍ وتقويمٍ، كما لا يخلو في

---

(١) المستصفى (٢: ٣٣١).

المراحل اللَّاحقة من حفظٍ وفهمٍ وتصوُّرٍ، لكنَّ القصدَ من هذا الفصلِ الإشارةُ إلى أنَّ كمَّ ذلك وكيفَه يختلف باختلاف ظروف الطالب العلمية، فمن جهة الكمِّ يكون في أوَّلِ أمرِه أكثرَ عنايةً بالجمع منه على أن يكون دارسًا مستشكِلًا، ومن جهة الكيف فليس الجمع في أوَّلِ التَّحصيلِ كالجمع آخرَه، فالجمعُ في أوله لا يرتهن غالبًا لقواعدَ تميِّز بين رُتَبِ المسائل، بخلافه آخرَه حيثُ يكون الجمعُ موجَّهًا، لا سيَّما إن كان الطالبُ قد توفَّر على علم من العلوم وأراد التخصُّصَ فيه، فلا يكاد يحفِل من المسائل إلا بما تعلَّق بتخصصه، كما هي حال الفرَّاء (٢٠٧هـ) فيما حكاه عنه هنَّاد السري (٢٤٣هـ)، بقوله: (كان الفرَّاء يطوف معنا على الشيوخ، فما رأيناه أثبتَ سوداءَ في بيضاءَ قَطُّ، لكنه إذا مرَّ حديثٌ فيه شيءٌ من التفسير أو متعلِّقٌ بشيء من اللُّغة قال للشيخ: «أعِدْه عليَّ»، وظنَّنا أنه كان يحفظ ما يحتاجُ إليه)[١].

وإذًا، فهذا الفصل بين المراحل تجريديٌّ يُرادُ به تصوُّرُ وظيفةِ كلٍّ منها، لا أن تكون كلُّ مرحلةٍ ناسخةً لملكات ما قبلها، ولا أن تكون السابقةُ عريَّةً عن ما بعدها، فإن هذا من شأن الأجسامِ لا العقول، فإنَّ وارداتِ العقولِ تتكامَل، وطوارئَ الأجسامِ تتزاحم، فإذا قَبِلَ الجسمُ صورةً وشكلًا كالتربيع مثلًا فليس بإمكانه قبولُ شكلٍ آخرَ من تدويرٍ وتثليثٍ حتى يفارقَ شكله الأول، وليس كذلك العقل، ففي كل مرحلة تحصيلية تزداد صورة العلم في عقل الطالب قوَّةً وتمكُّنًا، وتتنامى ملكاتُه ولا تتبدَّل، (ولهذه العلَّةِ يزدادُ الإنسانُ فهمًا كلَّما ارتاضَ وتخرَّجَ في العلوم والآداب)[٢]، ولذلك

(١) إنباه الرواة للقفطي (٤: ١٤).
(٢) تهذيب الأخلاق لمسكويه (٥).

كانت كل مرحلة علمية تُمِدُّ ما بعدها من مراحل، وليست كذلك الأجسام فإنها تطرد غيرها وتنسخ ما قبلها.

والقصدُ مما تقدَّم أن يمتحنَ الطالب مسيرته بما حصَّله من ملكات العلم وصناعاته، لا أن يسيرَ في طلبه على غير هدًى، فليست الغايةُ أن يكون سالكًا فحسب، لكن في أن يبلغ بقدمَي تحصيلِهِ ذُرَى التحقيق العلمي والنبوغ المعرفي.

(٢)

إذا فَقِهَ الطَّالبُ تلك المداراتِ العامَّةَ لمراحل التحصيل، وأدرك تشعُّبَ العلم واتساعَ آماده، فإنَّ عليه أن يوطِّئَ أكناف عزمِه وهمِّه لتقحُّم عقباتِه، ويأخذَ من المجاهدة والمصابرة بحظٍّ وافرٍ، فإنَّ المسيرةَ العلميَّةَ حافلةٌ بالمشاق، مُتْرَعَةٌ بالهموم، ولا تأتي على طالب العلم مرحلةٌ إلَّا والتي بعدها أشقُّ منها، وقلَّ ما تراه يخلِّفُ عقبةً من البلاء إلا صار في أخرى، فحتى ولو كان معتدلَ المسير في ابتداء طلبه إلا أنَّ (أواخر الأمور لا تبقى على وَفْقِ طلب أوائلها، بل تنسَلُّ عن الضبط)[1]، وهذا مع ما يُلحِقه من همٍّ يملأ قلبَه ويُعَنِّي عقلَه إلَّا أنَّه أمارةُ تقدُّمٍ علمِيٍّ، فكلَّما اشتدَّ عودُ الهموم العلميَّة بطالب العلم كان ذلك دالًّا على صدق طلبه، وعونًا له على الإيغال في تحصيله، ولو يعلم طلَّابُ العلم ما في الهمومِ العلميَّة والمشاقِّ المعرفيَّة

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (٢٩٩).

ثم لم يجدوا إلّا أن يستهموا عليها لاستهموا، ولَأتوها ولو حبوًا، ولَضجَّت قلوبهم إلى الله تعالى أن يكرمهم بالمزيد منها، فـ (الهمومُ مُقَدِّماتٌ - في أحيانٍ كثيرةٍ - لنعمٍ مخبوءةٍ)[1]، وكلَّما تضاءلَ الهمُّ واضمحلَّ فترتْ عزائم الطلبة، وكلَّتْ سواعد عقولهم، ونضبتْ مياه أمانيهم .. والشأن كما يقول أبو الطيِّب (٣٥٤هـ):

(يَخلُو من الهَمِّ أخلاهُم من الفِطَنِ)

وإذا انطوى فؤادُ طالب العلم على ذلك وامتلأ به يقينُه فليعلَمْ أنَّ جمعَ الهمِّ على العلم وتجريدَه له مقدمةُ التَّحصيل وخاتمتُه، و(لا شيءَ يُنالُ - طال الفكرُ فيه أو قَصُر - إلَّا بتجريد الفكر في جهة الطلب)[2].

والعلمُ عزيزٌ، ومن عزَّته نفرتُه من الهموم المشارِكة، ولا سيَّما هموم الدنيا وسطوة الأحداث المحيطة، وكلَّما كان الطالبُ أملَكَ لهمِّه كان أحظى بالنبوغ في علمه، فلا بُدَّ له من حيازة همه وجمع خاطره، فإن (رأس ماله جمعُ الخاطر، وإجمامُ القلب، واستعمالُ الفكر)[3]، ومن هنا ففلاحُ طالب العلم مرهونٌ بمدى استطاعته على تقليص هموم دنياه والتقليل من نفوذ محيطه عليه، وحين يطالع السير والتراجم بحثًا عن أحوال العلماء للاقتداء بنهجهم فلا يقفْ بصرُه عند حدود الأوصاف المثبَتَة بالحروف، بل لِيتعَدَّ إلى ما وراءَ ذلك، إلى انصرافِهم عن الهموم المتشاكسة، والنَّأيِ بأنفسهم

---

(١) رسائل الرافعي (١٥٧).
(٢) البرهان للجويني (١: ١٥٦ - ف: ٦٨).
(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (٨٩).

عن الاستغراق في الأحداث المحيطة، فقد كانت بين أئمة العلم والهموم الدنيوية والأحداث المحيطة بهم مسافةٌ فاصلةٌ، تُطوى حينًا وتُـمَدُّ أحيانًا، وما حصَّلوا تلك المسافة إلا لأنهم يملكون ذواتهم، وبذلك نالوا من العلم ما نالوا.

كان الإمام الخليل بن أحمد (١٧٠هـ) يقول: (إني لأغلق عليَّ بابي، فما يجاوزُه همّي)[١]. ولذلك بلغ أنْ كان الخليل .. لكنَّنا - و يا للأسى - لا أبوابَ لنا!

ولما سئل أبو حنيفة (١٥٠هـ): بِمَ يُستعانُ على حفظ الفقه؟ قال: (بجمع الهمّ)[٢]. فـ(هيهات أن يجتمع الهمُّ مع التلبس بأمور الدنيا .. هيهات! والله لا يجتمع الهمُّ والعينُ تنظرُ إلى الناس، والسمعُ يسمعُ حديثَهم، واللِّسانُ يخاطبُهُم، والقلبُ متوزِّعٌ في تحصيل ما لا بُدَّ منه)[٣]، والقلبُ إذا عَلِقَ كالرَّهْنِ إذا غَلِقَ.

ولما أخذ الجاحظ (٢٥٥هـ) في المفاضلة بين الحفظ والاستنباط بيَّنَ افتراقَهما، ولكنه أعقبَ ذلك ببيان أنَّ ما يُستعان به عليهما متَّفَقٌ عليه، وهو فراغ القلب، فقال: (طبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط، والذي يُعالجَان به ويستعينان عليه متَّفَقٌ عليه، وهو فراغُ القلب للشيء والشَّهوَةُ له، وبهما يكون التَّمامُ، وتظهر الفضيلة)[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧: ٤٣١).
(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (١٩٢).
(٣) صيد الخاطر (٣٦٨).
(٤) رسائل الجاحظ (٣: ٣٠).

ولِـمَا لفراغ القلب وجمعية الهمّ من أثرٍ بالغٍ في تجويد التحصيل (استحبَّ السلف التغرُّبَ عن الأهل، والبُعدَ عن الوطن، لأنَّ الفكرة إذا توزَّعتْ قَصُرَتْ عن درك الحقائق وغموض الدقائق ... ومما يقال عن الشَّافعي أنه قال: «لو كُلِّفتُ شراءَ بصلةٍ ما فهمتُ مسألةً»[1] .. ومن هنا كان (جمع الهم أصل الأصول)[2].

لا يتحدَّثِ الطالبُ عن رَمَقِ هذا الزمان، وتزاحمِ همومه، وتواترِ مشغلاته، واضطرابِ أحواله، لكن لِيَنظُرْ في مسافاته، فالأحداثُ الآن كهي في الزَّمَنِ الغابرِ، لكنَّ المسافاتِ ليست كالمسافات!

ويرحمُ الله تاجَ الدينِ السبكيَّ (٧٧١هـ) الَّذي أدرك ما ينبغي أن يُملأَ به وقتُ طالب العلم، ويُجمَعَ عليه همُّه، فبقلبٍ مِلْؤهُ الضَّنُّ بهَمِّ طالب العلم أن يُصرَفَ عمَّا خُلِق له قال بعد أن أورد طرفًا من أخبار التتار وجنايتهم على أهل الإسلام: (ومن النَّاس من أفرد التصانيف لأخبارهم، وَيَكْفِي الفَقِيهَ مَا أوردناه، فأوقاتُ طالبِ العلمِ أشرفُ أن تضيعَ في أخبارهم إلَّا للاعتبار بها)[3].

ومِن قبله قال إمامُ الدنيا أحمد بن حنبل (٢٤١هـ): (الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطع عن العلم الذي فُرِضَ علينا طلبُه)[4].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (٨٧-٨٨).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (١٩٢).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (١: ٣٤٢).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢: ٢٢٨).

(٣)

جمعُ الهم إذًا هو الخلاصُ لطالب العلم من مطرقةِ تشعُّب العلم وسندانِ الأحداث المحيطة، وهو الشَّرطُ الذي بتخلُّفِه تنحلُّ عُرى التَّحصيل العلمي.

ومن أشدِّ موانع الهمِّ من الانجماع والعلمِ من الاجتماع: تقطُّعُ التحصيل وتعثُّرُه، فالعلمُ يحتاج من طالبه مواظبةً ليرتاضَ به، بذلك ينجمعُ همُّه، ويثبتُ علمُه، وتُضبَطُ معارفُه .. فمَن ثَبت نَبت[1]، وإلاَّ فما أسرعَ علمَه إلى الأفول ونَبْتَهُ إلى الحطام! فإن (إهمال ساعةٍ يُفسِدُ رياضةَ سنةٍ)[2]، ولاتِّقاءِ ذلك فعلى طالب العلم أن يعتادَ العلم ويديمَ النظر فيه ويألفَ ملابسته، أيًّا كان نوع الملابسة، تعلُّما وتعليمًا، قراءةً وحفظًا، سماعًا وحضورًا.

قال برهان الدين المرغيناني (٥٩٣هـ): (إنما غلبتُ شركائي بأنّي لم تقعْ لي الفترةُ والاضطرابُ في التَّحصيل)[3].

ويقدر اتصال الطالب بالعلم وارتباطه بمصادره تدنو منه مسائلُه، وتتهادى إليه حقائقُه، ويكونُ حضورُها في ذهنه أبقى، لمواظبته عليها وارتياضه بها، والشأنُ كما قال الجاحظ (٢٥٥هـ): (إنما فرَّق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يُحسِنها: التزيُّدُ فيها، والمواظبةُ عليها)[4].

---

(١) اقتباسٌ من قول أبي حنيفة: (ثبتُّ عند حماد بن [أبي] سليمان فنَبَتُّ). انظره في: تعليم المتعلم للزرنوجي (٤٨).

(٢) الأخلاق والسير لابن حزم (١٠٦)، رسائل ابن حزم (١: ٣٥٣).

(٣) تعليم المتعلم للزرنوجي (١٠١). وهي فيه: (على شركائي)، ولعلَّ الصواب ما أثبتُّه، وهو كذلك في بعض الطبعات.

(٤) رسائل الجاحظ (٢: ١٧٧).

فكلَّما كان الطالبُ أكثرَ مراسًا للعلم وأشدَّ معالجةً له كان أمكنَ فيه وأحذقَ له ممن لم يبلغ رتبته من المعالجة، وهذا شأنُ المعارفِ كلِّها، فإنَّ للمختصِّ بها المعالجِ لها من الإحاطة بلُبِّها وأطرافها ما ليس لغيره، ولو كان هذا الغيرُ أعظمَ استعدادًا وأرجحَ أهليَّةً، (ولهذا كان غالبُ النَّاسِ عالـمًا بأفعال الصلاة، لتكرُّرِ أفعالها عليهم في اليوم واللَّيلة خمسَ مرَّاتٍ، بخلاف أفعال الحج، فإنَّ صبيانَ مكَّةَ شرَّفها الله تعالى أعلمُ بها من كثيرٍ من فقهاء الآفاق المبرزين في العلم، لِدُرْبةِ أولئك الصبيان بها دونهم)[1].

ثم إنَّ اتصالَ الطالب بالعلم هو القيدُ الذي يحفظ به علومه متى ما شدَّ قيدَه برِباط الاعتياد، وقد قضى أبو بكر القفال المروزي (٤١٧هـ) أربعين عامًا لا يعرفُ من العلم إلا اسمَه، وليس له به اشتغال، ثم رغبت نفسه في العلم، وذهب إلى أحد الأشياخ، وعرَّفه رغبتَه، فلقَّنه أوَّلَ جملة من كتاب المزني، وهي: (هذا كتابٌ اختصرتُه) .. عاد القفَّال إلى بيته ورَقَى سطحه، وكرَّر هذه الجملة ليحفظها، وقد كان حينها لا يعرف الفرق بين ضم تاء الضمير وفتحها، وعن ذلك قال: (ابتدأتُ التعلُّمَ وأنا لا أفرِّقُ بين «اختصرتُ» و«اختصرتَ»)[2]. كرَّر تلك الجملة ليلةً كاملةً، ثم غلبتْهُ عيناه ونام، ولما استيقظ فإذا بها قد ولَّت .. نَسِيَها!

ضاق صدرُه وقال: (أيشٍ أقول للشيخ؟!).

عاد إلى شيخه، وكاشفه بما جرى، فلم يسخط عليه، بل أوصاه بما صار

---

(١) شرح مختصر الروضة للطوفي (٢: ٦٨٤).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥: ٥٤).

به القفّالُ (٤١٧هـ) أحدَ أركان المذهب الشافعي، معتَمَدَ الطريقة الخراسانيَّة والقائمَ بأعبائها، وذلك حين قال له: (لا يصدَّنَّك هذا عن الاشتغال، فإنَّك إذا لازمتَ الحفظَ والاشتغالَ صار لك عادَةً)[1].

ونِعْمَ الوصيَّةُ هذه، فالملازمة سبيل الاعتياد، والاعتيادُ قَيدُ المحفوظات والمعلومات المارِبة، ولذلك كان أسد بن الفرات (٢١٣هـ) (لا يترك كلَّ يومٍ إذا أصبح أن يحفظَ شيئًا، وإن قَلَّ)[2].

وممن فَقِهَ منزلةَ الاعتياد وارتاض بها فانجمع همُّه للعلم وتوفَّر وقتُه للتحصيل: شيخُ العراق أبو الحسن الكَرْخي (٣٤٠هـ)، حتَّى بلغت به الحالُ أنْ صار يطلب الاعتيادَ ذاتَه، ولو لم ينلْ منه تحصيلًا!

يبيِّنُ ذلك قولُه: (كنتُ أحضرُ مجلسَ أبي خازمٍ يومَ الجمعة بالغداة من غير أن يكون درسٌ، لئلَّا أنقضَ عادتي من الحضور)[3]. وهذا ضربٌ من التربية العلمية عزيزٌ، ينال به الطالب شرفَ جمعيَّة الهمِّ على العلم.

وكان تقيُّ الدين السبكي (٧٥٦هـ) ينهى أبناءَه عن نوم نصف الليل الآخِر، وكان يبغي بذلك ترويضهم على القيام في هذه الساعات الفاضلة، حتى قال ابنُه عبدالوهاب، التاج السبكي (٧٧١هـ): (كان ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل، ويقول لي: «يا بنيَّ، تعوَّد السَّهَرَ ولو أنك تلعب». والويل

---

(١) معجم البلدان لياقوت (٥: ١١٦).
(٢) الحث على طلب العلم للعسكري (٣١).
(٣) الحث على طلب العلم (٣٢) وأثبت في بعض طبعات الكتاب: (أبي حازم) بالمهملة، ولعل الصواب ما أثبتُّه، فهو أبو خَازم عبدالحميد بن عبدالعزيز السكوني البصري، ثم البغدادي الحنفي، توفي سنة (٢٩٢هـ).

كُلُّ الويل لمن يراه نائمًا وقد انتصف الليل)[1]. فانظر كيف يأمر أبناءه بشَغْل آخر الليل ولو باللعب، وما ذلك إلا تربيةً لهم على فضيلة الاعتياد.

وكما أنَّ تقطُّعَ التحصيل يمنع الهمَّ من الانجماع فكذا تنقُّلُه، فإنَّ تَنَقُّلَ التحصيل من كتابٍ لآخرَ قبل استتمام الأول - إن لم يكن باعثُه إلَّا الملَلَ وإخوانَه - يشتِّتُ الهمَّ ويُشَرِّد العلمَ، وكذا القولُ في التنقُّل بين المعلِّمين والفنون والوسائل.

قال برهان الدين الزَّرْنوجيُّ: (اعلم بأنَّ الصبرَ والثباتَ أصلٌ كبيرٌ في جميع الأمور، ولكنَّه عزيزٌ ... فينبغي أن يثبتَ ويصبرَ على أستاذٍ وعلى كتابٍ حتى لا يتركه أبترَ، وعلى فنٍّ حتى لا ينشغل بفنٍّ آخرَ قبل أن يتقنَ الأوَّلَ[2]، وعلى بلدٍ حتى لا ينتقلَ إلى بلدٍ آخرَ من غير ضرورة، فإن ذلك يفرِّقُ الأمور، ويُشغِلُ القلب، ويُضَيِّعُ الأوقات)[3].

(٤)

ها هنا تِقنِيَاتٌ يستعين بها الطالب على جمع الهم، وهي وُصْلَةٌ له إلى أن يكون كلُّ همِّه موقوفًا على العلم، منجمِعًا عليه، فإنَّ مِن طبائع الأشياء - ولا سيَّما ما تعلَّق منها بالعلم وتحصيله - ألَّا تأتيَ دَفعةً واحدةً، بل حتَّى تساعفَ بها الأيام، وتتآزرَ على تكوينها التجارِب المتعاقبة، وذلك أنَّ

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١٠: ٢٠٣).

(٢) الانفراد بتعلم فن دون شفعه بآخر، أو جمع فنين في آنٍ - وسائل في التحصيل تتفاوت بتفاوت الطلبة، وجوهر القصد أن لا يكون حظُّ الطالبِ من تحصيله التنقُّلَ بلا إتقان.

(٣) تعليم المتعلم (٥١-٥٢).

(الخيرةَ لا تقع، واليقظةَ لا تستحكم، والطَّبعَ لا يرتاض = حتَّى تتصفَّحَ الأمورَ، وتتعقَّبَ الدُّهورَ، وتأخذَ نصيبَك من الاعتبار، وتبعثَ هِمَّتَك على محمود الاختيار)[1].

من تلك التقنيات: التركيز على الإنجاز اليومي بقطع النظر عن نهايات المشاريع، ومُنْجَزُ طالب العلم حينئذٍ يكون بما حصَّله في يومه، وأيُّ تفريطٍ واقعٍ في أيِّ يومٍ فهو معدودٌ من العثرات التي لا تُجبَر، وهذا التركيزُ يُضِرُّ به ويُشوِّشُ عليه كثرةُ انتقالِ بَصَرِ الطالب إلى مستقبل أيامه، لا سيَّما المشاريع الَّتي تمتد شهورًا أو أعوامًا، فإذا ما جعل مقياس مُنجَزِه العلميِّ راتبًا يوميًّا، كان في ذلك عونٌ له على حَفْزِ عزيمته وجَمْعِ همِّه كلَّ يوم، وهكذا حتى يرتاض بذلك، ويكون مؤهَّلًا من بعدُ لإدارة مشاريعه العلمية الكبرى.

أَلْقِ ذِهنَك في جَعبة الماضي، وانظرْ في واقع بعض المشاريع: «التمهيد» لابن عبدالبر (٤٦٣هـ)، «تحفة الأشراف» للمزي (٧٤٢هـ)، «فتح الباري» لابن حجر (٨٥٢هـ)، «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٣٩٣هـ)، «الأعلام» للزِّرِكْلي (١٣٩٦هـ)، وغيرها .. لم تكن وليدةَ شهرٍ، ولا سنةٍ، ولكنها كانت خلاصةَ عُمُر، ومشروعَ حياة، وتعاقُبًا منتظِمًا لمنجَزات الأيام[2].

نراها في نسختها الأخيرة فنعجَبُ من قدرة أصحابها التصنيفيَّة، لكنَّا لو نظرنا إلى تدرُّج تأليفها لعلمنا أنَّ رأسَ مال الإنجاز هو الجد والمصابرة والإنجاز المنتظم.

---

(١) أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي (٤٧٠).

(٢) استغرق تأليف «التمهيد» ٣٠ عامًا، و«تحفة الأشراف» ٢٦ عامًا وشهرين وبضعة أيام، و«فتح الباري» ٢٥ عامًا وبضعة أشهر، و«التحرير والتنوير» ٣٩ عامًا و٦ أشهر، و«الأعلام» أكثر من ٦٠ عامًا.

نُقدِم على متنٍ ونسعى في وضع شرحٍ له، ومع ثاني فصوله تخور القوى، لأنّا نريد أن يتمَّ لنا الشرحُ في بضع ليالٍ، ولو أنّا صَرَفْنَا النَّظرَ عن النّهايات، وأحكمنا العزم، وعاقدنا الصبر، وأخذنا أنفسنا بالإنجاز اليومي - ولو قَلَّ - لكانت النتيجة بعد حين مذهلة!

تخيَّل لو أنَّ لك في ثلاثةِ فنونٍ ثلاثةَ متونٍ تشتغل بشرحها، وفي كلِّ يومٍ تشرح ثلاثَ جُمَلٍ فقط من كل متن .. صدِّقني، لن تمضيَ عليك ستتان إلّا وقد فرغتَ من ثلاثة شروح، وقُلْ مثلَ ذلك في الحفظِ والقراءةِ وغيرِها من نوافذ الإنتاج التحصيلي.

هذه حصيلة عامين، ترى فيها مكتوباتِك ومحفوظاتِك ومقروءاتِك تتضخَّم بما لم يخطرْ لك على بالٍ، فكيف إذا كان هذا سَمْتًا عامًّا في تحصيلك .. كم تأليفًا ستنجز، وكم متنًا ستحفظ، وكم كتابًا ستقرأ؟!

ولذلك، فلا تحدِّثني عن قدراتك الفائقة، وآمالك الكبرى، وخططك المستقبلية .. حدِّثني (فقط) عن إنجازك اليومي، فهو برهانُ آمالِك وعنوانُ نهاياتِك.

قال أحمد أمين (١٣٧٣هـ): (قليلٌ من الزمن يُخصَّص كلَّ يومٍ لشيءٍ معيَّنٍ قد يغيِّرُ مجرى الحياة، ويجعلُكَ أقومَ مما تتصوَّر وأرقى مما تتخيَّل)(١).

وقال مارون عبُّود (١٣٨١هـ): (إنَّ ساعةً تُنتَزَعُ كلَّ يومٍ من ساعات اللَّهوِ وتُستَعمَلُ فيما يفيد تُمكِّنُ كلَّ امرئٍ ذي مقدرةٍ عقليَّةٍ أن يتضلَّعَ من علمٍ بتمامه)(٢).

---

(١) فيض الخاطر (٣: ٨٥).

(٢) حبر على ورق (١٧٢).

ولما سئل عبدالرحمن بدوي (١٤٢٣هـ) عن سِرِّ إنتاجه الغزير أجاب بقوله: (الذي أشكو منه أحيانًا هو الفراغ، لا تتعجَّبْ، يكفي أن يعملَ الإنسان بجدٍّ أربعَ ساعاتٍ في اليوم قراءةً وكتابةً إلى جانب أعماله اليوميَّة لكي يُنتِجَ أضعافَ ما أنتجتُ، كما هو مشاهدٌ في تاريخ الفكر العربي والأوروبي، خُذْ مثلًا إنتاج كلٍّ من الطبري وابن سينا في الثقافة العربية، وقبلهما أرسطو في الثقافة الأوروبية، تجدْ إنتاجَهم ضخمًا جدًّا بالقياس إلى كتابات غيرهم من أصحاب الإنتاج الغزير.

المهمُّ في جميع الأحوال هو الاستفادةُ التامَّةُ من الساعات المخصَّصة للعمل، وذلك بالتركيز التام، وحشد الخاطر، ثم المثابرة دون انقطاع، سواء في الكتابة أو القراءة، ولنتصوَّر مثلًا أن يكتب الإنسان في اليوم صفحتين أو ثلاثًا، ففي خلال أربعين سنة يكون قد أنتج أكثر من مئة كتاب، وفي خلال ستين سنة يكون قد أنتج أكثر من مئة وخمسين كتابًا!)[١].

(٥)

ومن تلك التقنيات: الانقطاعُ المرحليُّ إلى مشروع علمي متكامل يحقِّق به طالب العلم قفزةً معرفيَّةً في أحد مجالات العلم والمعرفة، وإنَّ من الفاضل لطالب العلم أن يدُسَّ في أعطاف مشاريعه العلمية بين زمنٍ وآخرَ قفزةً معرفيَّةً ذاتَ مبدأٍ ومنتهًى يُحقِّقُ بها مُنجَزًا معرفيًّا مكتملَ الأركان، أيًّا ما كانت ماهيَّة تلك القفزات، قراءةً أو حفظًا أو تأليفًا أو تعليمًا.

(١) عبدالرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام لـ د. سعيد اللاوندي (١٦٣-١٦٤).

وخاصَّةُ هذه القفزات أنها تجعل موقعَ المشروع من ذهنيَّة طالب العلم ذا حظوةٍ، لتماسكه بسبب قرب إنجازه واتضاح حدوده، وهي كذلك تروِّضُه تدريجيًّا على الانقطاع للعلم وجمع الهم عليه.

وقد درج كثيرٌ من أعلام المعرفة على ذلك، وجعلوا للقفزات المعرفيَّة موقعًا في خارطة تحصيلهم، فنالوا بانقطاعهم لها مكتسباتٍ جليلةً، وأنا أذكر لك ثلاثةَ نماذجَ شاهدةً على ذلك:

■ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي (١٣٩٨هـ):

دَرَسَ العلَّامة الميمني أوَّلَ طلبه للعلم بعضَ علوم العربية، لكنه لم يحظَ بإتقانها، حتى جابهه أحدُ طلبة العلم بسؤال عن وَزنِ كلمتين ومعناهما، فلم يُجِبْه واعترف له بجهله وقلة معرفته، فعيَّره السائل بأنه إذا لم يعرف هاتين الصيغتين فلا حاصلَ له في الترقِّي إلى الكتب الفخمة.

قال الميمني: (أنا أرى كلمتَه هذه نقطةَ الانتقال في حياتي العلميَّة، وذلك أنني بقيت في بعض زوايا المدرسة أفكر في شأني، وأنني غريب بـ«دِهْلِي» عن الأبوين والوطن، وقد أضعتُ ثلاثةَ أعوامٍ من دون أن أعرف الكلمة التي علَّمنيها الشيوخ، قد وثقت تمام الثقة أن لن يحصلَ لي من هؤلاء الشيوخ كبيرُ فائدةٍ، وأنِّي لن أستفيد في المستقبل شيئًا إلَّا إذا ما جعلتُ شيخي نفسي، ولا أراجع أحدًا منهم، وأجعل حجي رايةً وأخطو إلى الإمام، ولن يتأتَّى ذلك إلا إذا ما فرغتُ عمَّا أنا في صدده من جميع النواحي، فأذكر أنني انتخبت «فصول كبرى» - كتابٌ في الصرف كالشافية - وجمعتُ نحوَ ثلاثة شروح، كنتُ آخذُ فصلًا أو بابًا من الفصول، وكنتُ أفكر في معناه وتفسيره

غاية التفكير، ثم أراجع هذه الشروح الفارسية، فإذا ما قضيتُ حاجتي منها أراجع هذا الباب بعضه في «شافية» ابن الحاجب بالعربية، وربما أزيد في ذلك بمراجعة بعض شروح «الشافية» أيضًا، بحيث أنني كنت أرى نفسي عارفةً بهذا الباب خاصَّةً، فكنت بهذه الصورة أفرغ كلَّ يوم من باب من الأبواب، ولعل كتابنا «فصول كبرى» لا تزيد أبوابه [عن] ثلاثين، فكأني بهذه الصورة فرغتُ من جميع كتب الصرف في ثلاثين يومًا، ولا وقصَ ولا شطَطَ)[1].

■ **محمود الطناحي** (١٤١٩هـ):

لما تحدث الطناحي عن بواكير اشتغاله بالتحقيق ذكر أنه كان يعمل مع نفرٍ من المستشرقين، ومن أولئك د. هانس روبرت رويمر (١٤١٨هـ)، أحدُ المستشرقين الألمان، فقد عمل معه في تحقيقه لكتاب «الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر» لابن أيبك الدواداري (بعد ٧٣٦هـ).

قال الطناحي: (في أثناء قراءتي معه للنص جاء هذا البيت:

مَلِكٌ مُنشِدُ القريضِ لديه
يضعُ الثَّوبَ في يَدَيْ بَزَّازِ

فسألني ذلك المستشرق: من أي بحرٍ هذا البيت؟ فأطرقتُ إطراقةً بلهاء، تَبِعَتها ضحكةٌ أشدُّ منها بلاهةً. فقال لي المستشرق منكِرًا متعجِّبًا: طالبٌ بدار العلوم، متخرجٌ من الأزهر، لا يعرف العَرُوض؟

---

(١) بحوث وتحقيقات للميمني (١: ١٩-٢٠).

فكأنّما ألقمني الرجل أحجارَ «إمْبَابَةَ» كلَّها، وعدتُّ إلى بيتي خاسئًا حسيرًا، أجرُّ رجلي جرًّا من الزَّمَالِك، حيث يقع المعهد الألماني للآثار، إلى داري بالدَّرْبِ الأحمر خلفَ دار الكتب المصرية آنذاك، وما إن وصلتُ إلى بيتي مهدودًا مثقَلًا بعناء الخيبة والمشي الطويل حتى هُرِعْتُ إلى صندوق الكتب الدراسية القديمة، واستخرجتُ منه كتاب «المذكرات الوافية في عِلمَي العروض والقافية» لمؤلفه الشيخ عبدالفتاح شراقي رحمه الله، وهو ما كان مقرَّرًا علينا في الأزهر، وانكببتُ عليه لا أكادُ أديرُ وجهي عنه صباحَ مساءَ، وما هي إلَّا أسابيعُ قليلةٌ حتَّى لانت لي البحور، واستقرَّت أنغامُها في أذني، وامتلأ بها سمعي، ثم كان ما كان من رحلتي الطويلة مع تحقيق النصوص، ومن أدواته معرفةُ علم العَرُوض .. وهكذا من انقطع إلى شيءٍ أتقنه)[1].

وعلمُ العَروض علمُ قَفْزَةٍ، كما قال شعبان الآثاري (٨٢٨هـ) في مطلع ألفيَّه العَروضيَّة:

وَالأُدَبَــا تَـقُـولُ: «عِـلْـمُ شَهْرِ»
وَحَـسْرَةُ الإِنْسَانِ طُـولَ الدَّهْرِ[2]

وقد تلقَّى ابن حجر (٨٥٢هـ) عن بدر الدين البشتكي (٨٣٠هـ) علمَ العروض في مجلسٍ واحدٍ، قرأ عليه شيئًا من مقدمة عروضية سهلة التناول، وقال: (استفدتُّ منه معرفةَ الفَنِّ بكماله)[3].

---

(١) في اللغة والأدب (١: ١٨١-١٨٢).

(٢) الوجه الجميل في علم الخليل (البيت رقم: ٣٢).

(٣) الجواهر والدرر للسخاوي (١: ١٣٩-١٤٠).

■ عبدالوهاب المسيري (١٤٢٩هـ):

بعد تخرُّجه من مدرسة «دمنهور» الثانوية انتقل المسيري إلى «الإسكندرية»، ولما ذهب إلى قسم اللُّغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية صُدِم بأن الجميع كان يتحدث باللُّغة الإنجليزية، وحتى المصريون الخُلَّص كانوا أجانب، إذ كانوا لا يعرفون العربية على حد قوله، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين، بل قرر أن يدخل تحدِّيًا معرفيًا يتجاوز فيه عقبة جهله باللُّغة الإنجليزية ليتمكن من المسير في هذا القسم بلا تعثُّر .. قال متحدِّثًا عن نفسه:

(قررتُ التحرُّكَ بسرعةٍ لأكتشفَ الآليَّات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، وأهمها إجادة اللُّغة الإنجليزية، فحبستُ نفسي في غرفة لمدَّة شهرٍ كاملٍ، لا أسمع إلا الإذاعات المتحدثة بالإنجليزية، ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية، وعُدتُّ بعد الفصل الدراسي الأول وقد تملكتُ ناصية اللُّغة بشكل أدهش أساتذتي!)[1].

(٦)

قال أبو هلال العسكريُّ (٤٠٠هـ): (اجتهدْ في تحصيل العلم لياليَ قلائلَ، ثمَّ تذوقْ حلاوة الكرامة مُدَّةَ عمرك، وتمتَّع بلذَّة الشرف فيه بقيَّةَ أيامك، واستَبْقِ لنفسِك الذِّكرَ به بعد وفاتك)[2].

(١) رحلتي الفكرية (١٣٠).

(٢) الحث على طلب العلم (٥).

لتكنْ وصيةُ أبي هلالٍ هذه نصب عينَيْ مُرِيدِ القَفَزات، ثمَّ ليعلَمْ أنَّ للقفزاتِ فقهًا ينبغي عليه مراعاته لتؤتي قفزتُه ثمرتَها .. وفقهُها مجسَّدٌ في ثلاثة أمور:

الأول: لتكنْ في كل قفزةٍ محدودَ المصادر، ولا تشتِّت قفزتك بكثرة منافذ المطالعة، فالانقطاع المرحلي بحاجة إلى مزيد تركيزٍ وتكثيفٍ للنظر في مساحات محدودة، فإذا عزمتَ على حفظ «عمدة الأحكام» فخُذْ «كشف اللثام» للسفَّاريني (١١٨٨هـ) أو «العُدَّة في شرح العمدة» للعطَّار (٦٧٢هـ)، وإذا نهضتَ لـ«بلوغ المرام» فلا تجاوزْ «فتحَ ذي الجلال» لابن عثيمين (١٤٢١هـ)، وإذا طمعت في ذَوْق «مستصفى» الغزالي (٥٠٥هـ) فأدنِ منك مصدرًا أو مصدرين، ولْيكُن مثلًا «الإحكامَ» للآمدي (٦٣١هـ) مع «شرح مختصر الروضة» للطوفي (٧١٦هـ)، ولا تَزِد.

الثاني: أعِدَّ مُتكَأً القفزة بعناية، أبلِغ في ترتيبه وتطييبه، خلِّصه من مكدِّراتِ العصر، ووسائلِ التواصل الاجتماعي، افعلْ كلَّ ما يعينك على نجازِ مشروعك، ولو كلَّفك الكثير، ولا تكن شحيحًا، فـ (الاقتصاد الصحيح أن تنفق في ما تحتاج إليه كلَّ مبلغٍ مهما يكنْ كبيرًا، وإيَّاك أن تشتري شيئًا لا تحتاج إليه مهما يكن متدنيًّا) قاله عمر فرُّوخ (١٤٠٨هـ) نقلًا عن عمِّه حسين[1].

الثالث: لتكنْ أيّامُ قفزتِك كالشركاء المتشاكسين، يقايض بعضُها بعضًا .. لا تُجرِ بينها عقودَ تبرُّع، ولك في أجزاء يومِك مندوحةٌ عن بسط

---

(١) غبار السنين (٤٤).

اليد السفلى لبقيَّة الأيام .. إذا فاتك نصيبُ الفجرِ فأدِّه الظهرَ، أو نصيبُ العصر فأدِّه المغرب، ولا توجِّل، فإنما سَيلُ العشرات اجتماعُ نُقَطِ التأجيل.

(٧)

إنَّ من أكبر ما يواجه طالب العلم في هذا الزمن كثرة الصوارف التي تشعِّب همومه وتصرفها عن العلم، الدُّنيويَّة منها والمعرفِيَّة:

أمَّا الصَّوارفُ الدنيويَّةُ فكم رأينا من طلبةِ علمٍ تخطَّفتهم يدُ الدنيا بزخرفها وماديَّاتها، فأقبلوا عليها، ونبذوا ما حصَّلوه من علمٍ وراءَ ظهورهم، ولو أنهم بلغوا من العلم غايتَه وذاقوا بمعاناة حقائقِه لذَّتَه لاستغنوا، فإن (من وجد لذَّةَ العلم والعمل به قلَّما يرغبُ فيما عند الناس)[١]، ولكنَّ بريقَ دنياهم أسْرَعَ مِن تخطُّفِهم ولم يَلْقَ منهم غَيرةً على علمٍ ولا تحصيلٍ، فـ (لعنَ الله دنيا تُختارُ على استفادة العلوم)[٢].

بل إن العلمَ الحقَّ هو الذي يباعد بين الطالب ودنياه، فإذا كان العكس دلَّ ذلك على ارتباكٍ في نيتِه وصدقِ قصده، ولذلك قال سفيان (١٦١هـ): (ما ازدادَ عبدٌ علمًا فازدادَ في الدنيا رغبةً إلَّا ازدادَ من الله بُعْدًا)[٣].

وإن لم تتخطَّفهُ يدُ الدنيا عن العلم كان أهونَ ما يصيبه منها إذا سار بخاطره مع شعابها أن تكدِّرَ عليه صَفْوَ تحصيله، وتَظْلِمَ من فهمِه ودرايتِه.

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجي (٤١).
(٢) إنباه الرواة للقفطي (١: ٢٦٠).
(٣) مسند الدارمي (١: ٣٥٨ - رقم: ٣٩٨).

ولما سُئِلَ أبو حيَّانَ التوحيديُّ (٤١٤هـ) عن ابن زرعة المتفلسف (٣٩٨هـ) - وهو عالمٌ نصرانيٌّ، عُني بالترجمة، وبرز في المنطق والفلسفة - أجاب بقوله: (هو حَسَنُ الترجمة، صحيحُ النقل، كثيرُ الرجوع إلى الكتب، محمودُ النقل عن العربية، جيِّدُ الوفاء بكل ما جاء في الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذٌ، ولا له من لغزها مأخذٌ، ولولا توزُّعُ فكرِه في التجارة ومحبَّتِهِ في الربح، وحرصُهُ على الجمع، وشِدَّتُهُ على المنع = لكانت قريحتُه تستجيبُ له، وغائمتُه تدُرُّ عليه، ولكنَّه مبدَّدٌ مُندَّدٌ، وحبُّ الدنيا يُعمِي ويُصِمُّ!)[١].

وسُئِلَ عن ابنِ السَّمحِ (٤١٨هـ) أحدِ مناطقة بغداد، فهوَّن من أمره، وذكر أن تهالكَه على الكسب، واستفراغَه خالصَ عقله في ذلك ممَّا حَطَّ من مرتبته، ثم قال: (والقلبُ متى لم يُنَقَّ من دَنَسِ الدنيا لم يَعبَقْ بفوائح الحكمة، ولم يتفوَّحْ بِرَدْعِ الفلسفة، ولم يقبلْ شُعَاعَ الأخلاق الطاهرة المفضية إلى سعادة الآخرة)[٢].

وقد كان من دعاء الإمام عبدالرحمن بن القاسم (١٩١هـ): (اللَّهمَّ امنعِ الدُّنيا منِّي، وامنعني منها بما منعتَ به صالحي عبادك)[٣].

وإنَّ من أكبر ما يفتِن بعض طلبة العلم في هذا الزمان أنهم يرمقون بأبصارهم دنيا غيرِهم، فيكون في ذلك فتنةٌ لهم، ولو أنهم قصروا الطَّرْفَ على ما هو جديرٌ بأن يُقصَرَ الطَّرفُ عليه لعلموا أن هذه الدنيا بكل ملذَّاتها لا تعدل لذَّةَ مسألة من مسائل العلم تكشَّفتْ للطالب حقائقُها ودقائقُها.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة (١: ٣٣).

(٢) الإمتاع والمؤانسة (١: ٣٤).

(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣: ٢٥١).

والشَّأنُ كلُّه في اغتراب الطالبِ عن لحظتِه الحاضرة ليشهد بعينَي بصيرته عزَّ العواقب.

قال الشوكاني (١٢٥٠هـ) في كلامٍ طويلٍ حقيقٍ بأن يكتب بماء الذهب: (ما أحسنَ ما حكاه بعضُ أهل العلم عَن الحكيم أفلاطون، فإنه قال: «الفضائلُ مُرَّةُ الأوائل حُلْوَةُ العواقب، والرَّذائلُ حُلْوَةُ الأوائل مُرَّةُ العواقب». وقد صدق، فإنَّ مَن شغل أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل لا بُدَّ أن يفطِمَ نفسَه عن بعض شهواتها، ويحبسَها عن الأمورِ التي يشتغل بها أترابُه ومعارفُه من الملاهي ومجالس الرَّاحَة وشهوات الشَّبَاب، فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلكَ اللَّذَّات والخلاعات وجد في نفسه بحكم الشباب وحَدَاثة السِّنِّ ومَيْلِ الطَّبع إلى ما هناك مرارةً، واحتاج إلى مجاهدةٍ يرُدُّ بها جامحَ طبعه ومتفلِّتَ هواه ومتوَثِّبَ نشاطه، ولا يتمُّ له ذلك إلا بإلجام شهوته بلجام الصبر ورباطها بمربط العفة. وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس مَن كان في زاويةٍ من زوايا المساجد ومقصورةٍ من مقاصر المدارس، لا ينظر إلَّا في دفترٍ، ولا يتكلم إلَّا في فنٍّ من الفنون، ولا يتحدَّثُ إلَّا إلى عالمٍ أو متعلِّمٍ، وأترابُه ومعارفُه من قرابته وجيرانه وذوي سنه وأهل نشأته وبلده يتقلَّبون في رافِهِ العيش ورائِقِ القَصْفِ.

وإذا انضمَّ لذلك الطالب - إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النفس عن شهواتها - مرارةٌ أخرى هي إعواز الحال وضيق المكسب وحقارة الدخل فإنَّه لا بُدَّ أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه، لكنَّه يذهب عنه قليلًا قليلًا.

فأوّلُ عقدةٍ تنحَلُّ عنه من عُقَدِ هذه المرارة عندما يتصوَّرُ ما يؤول به الأمرُ وينتهي إليه حالُه من الوصول إلى ما قد وصل إليه مَن يجدُه في عصره من العلماء.

ثم تنحَلُّ عنه العقدةُ الثَّانيةُ بفهم المباحث وحفظ المسائل وإدراك الدقائق، فإنه عند ذلك يجد من اللَّذَّةِ والحلاوة ما يذهب بكل مرارة.

ثم إذا نال من المعارف حظًّا وأحرز منها نصيبًا ودخل في عداد أهل العلم كان متقلِّبًا في اللَّذَّاتِ النَّفسانيَّةِ التي هي اللَّذاتُ بالحقيقة، ولا يعدم عند ذلك من اللَّذات الجسمانية ما هو أفضل وأحلى من اللَّذات الَّتي يتقلَّب فيها كلُّ مَن كان من أترابه.

وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فردٍ من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به اغتبط بنفسه غاية الاغتباط، ووجد من السرور والحبور ما لا يُقادَرُ قدرُه)[1].

وأمّا الصَّوارفُ المعرفيَّةُ، فهي تلك التي تحيد بالطالب عن صلب العلم إلى هوامشه، فتراه مرةً غارقًا في كتب الأدب، ومرةً ملاحقًا سجالاتِ الفكر، وثالثةً في السير الذاتية ودواوين التراجم، ورابعةً في جوامع المقالات، ووو .. وليس له من طلب ما يحقِّقُ مشروعَه إلَّا الفُتَات!

وكثيرٌ ممن سقط في وَحَلِ صوارف الهوامش المعرفية يوقنُ بضرر هذا السبيل، لكنَّه لا يتحمل مرارة الصبر على لأواء علم الشريعة، فيفرُّ منه

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (١١٩-١٢٠).

إلى غيره من مستراح الأدبِ والفكرِ وماجَرَياتِ الواقع .. لا ينقصُه تصوُّرٌ لخطأ هذا الطريق، لكنه يفتقر إلى قرارات حاسمة.

نَعَم، ينبغي لطالب العلم ألَّا ينسحبَ عن واقعه فيدخلَ ذلك بالنقص على تصوراته، فإنَّ من مقاصده في تحصيل العلم أن يكون له بعد حينٍ أثرٌ في واقعه بصرف النظر عن امتدادِ ذلك الأثر أو تقلُّصِه، فعليه حينئذٍ أن يحيطَ بشيءٍ مما يجري حوله، ليكونَ على بَصَرٍ بالواقع الذي يعيش فيه شخصُه ويتحرَّك فيه علمُه، ولكن ليكنْ من ذلك على حَذَر، فربَّما جرَّتِ الواقعةُ أو القضيَّةُ أختَها حتى تجتالَ طالب العلم عمَّا هو فيه من تحصيل، فلا بُدَّ أن يُعنَى بضبط نفسه وإحكام تعامله مع واقعه وقضاياه، ولذلك طرائقُ تتفاوت بتفاوت الطلبة، وهذا ضربٌ يخضع لسياسةِ الطالب نفسَه ومدى قدرتِه على ضبط تحرُّكِه، وهو أبصر بما يصلح لجامًا لتحصيله.

من تلك الطرائق مثلًا التَّمييزُ في التَّعاطي مع الواقع بين التحصيل والإنتاج، بحيث تتسع دائرة تحصيله لمطالعة ما يتعلَّق بواقعه، ولكن إنتاجَه يُقصَرُ على اهتماماته العلمية، وسبب ذلك أن الإنتاج له تَبِعاتٌ، فإن الذي يتَّصل بواقعه بكتابةٍ أو غيرِها فلا بُدَّ وأن يكون لإسهامه ذاك رجعُ صدًى، فيظلُّ يلاحِقُ ما أنتجَه، وينظرُ في ما لاقاه من رَدَّاتِ فِعْلٍ، سؤالاتٍ كانت أو ردودًا أو غيرها، وهكذا حتَّى يستوليَ ذلك على وقته، ويطغى على تفكيره، وإذا شَخَصَ طالبُ العلم برأسه في غير شأنه فما أسرَع أن تُسحَبَ أقدامُه من تحته ليُلقَى بها في أوديةٍ نائيةٍ عن تخصصه العلمي.

ومن رأيته يميِّز بين مجالَي التحصيل والإنتاج الدكتور إحسان عباس (١٤٢٤هـ) أحد أعلام المحققين والأدباء المعاصرين، وقد تحدَّث عن تجربته في ذلك، فقال:

(أنا أعرف أن المثقفين في عصري كانوا يتحدثون في القضايا الساخنة، وفي حرية التعبير، وحرية المرأة، والاتجاه الإسلامي والماركسي، والحداثة وما بعد الحداثة، وسيطرة الرأسمالية والعولمة و... عشرات من القضايا الأخرى. لقد كان شعاري أن لا أكتب في شيءٍ خارجٍ عن اختصاصي وما أثق فيه بمعرفتي ووضوح تصوُّري، لقد كنت أغذِّي هذا الجانب لديَّ بالقراءات المستفيضة، ولكني كنتُ أُحجِمُ عن تناوله بالبحث والكتابة، ورحم الله امرءًا عرف حدَّه فوقف عنده)[1].

وإذا كان اشتغالُ طالب العلم بهوامش المعرفة وما كان منها واقعًا خارجَ بيته العلمي مضرًّا بمسيرِه، مشتِّتًا لعزمه وهمِّه، فانظر إلى ولاية القضاء، وهي تتعلق بجوهر العلم، وتحفز القاضي على مزيدٍ من البحث والتفتيش في مدونات الفقه، ولكنها لما كانت تشغلُ القاضي عن تحصيله العلمي، وتقصُرُ بحثَه ونظرَه على ما يكون محلَّ خصومات الناس = استحبَّ له بعض أهل العلم ألا يطيل المكث في القضاء، حتى روي عن أبي حنيفة (١٥٠هـ) أنه قال: (لا يُترَكُ القاضي على القضاء إلَّا حولًا، لأنه إذا اشتغل بالقضاء ينسى العلم، فيعزله السلطان بعد الحول ويستبدل به حتى يشتغل بالدرس)[2].

(١) بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ (١: ٥).
(٢) الاختيار لتعليل المختار للموصلي (١: ٢٥٥).

وقد قال الأدفوي (٧٤٨هـ) عن ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) مع علوِّ مقامه وفرطِ إمامته: (لو حيل بينه وبين القضاء لكان عند الناس أحمدَ عصره، ومالكَ دهره، وثوريَّ زمانه، والمتقدِّمَ على كثيرٍ ممن تقدم، فكيف على أقرانه؟! على أنه عزل نفسه مرَّةً بعد مرَّةٍ، وتنصَّل منه كرَّةً بعد كرَّةٍ، والمرءُ لا ينفعه الحذر، والإنسانُ تحت القضاء والقدر، كان يقول: «والله ما خار اللهُ لمن بُلِـيَ بالقضاء»)[1].

وقال الشوكاني (١٢٥٠هـ) عن مباشرة الخصومات لما تولى القضاء: (استغرقتْ في ذلك جميع الأوقات إلا لحظات يسيرة قد أفرغتُها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل وتتميم ما قد كنتُ شرعتُ فيه، واشتغل الذهنُ شغلة كبيرة، وتكدَّر الخاطر تكدُّرًا زايدًا)[2].

فإذا كان هذا في ولاية القضاء، وهي - كما علمتَ - متعلِّقةٌ بصلبِ العلم ومحكَمِه، فكيف هي الحالُ في المعارف الصارفة عن جوهر العلم؟!

هذا، وإنَّ ممَّا يعزِّزُ هذه الصوارف المعرفية ويُذْكِي نارَها: وسائلُ التواصل الحديثة بمختلف أشكالها، فهي تفرض على طالبِ العلم الملابسِ لها نمطًا من المعارف الـمُلَحِيَّة التي تناسب الفضاء العام، فتستهلك وقته وجهده، حتى لا يكادُ يبصِرُ من العلم إلَّا ما كان منه على وِزَانها ومِسَاحتها، فحتَّى لو جمع همَّه على العلم، فإنه يجمع همَّه على نوعٍ من المعارف العجفاء التي لا تُنْقي.

---

(١) الطالع السعيد (٥٩٦).

(٢) البدر الطالع (٥٠٣).

أضِفْ لذلك ما نراه من تناثر أشلاء هموم الطلبة في فضاءات الناس العامَّة، والهمُّ لا يؤتي أُكُله إلَّا إذا كان أسيرَ محيطِ صاحبه، وإلَّا كان حظُّه من الهمِّ إذاعتَه.

*****

يفتقدُ طالب العلم في هذا الزمان ذلك المحيط الطاهر، يوم أن كان يدرُجُ إلى مكتبته، يقرأ ويحفظ ويكتب دون أن يعلم به أحد، دون أن «يغرِّد» بفائدة من هذا الكتاب أو ذاك، دون أن يصوِّرَ صفحات مما بين يديه من الكتب ليزج بها في أحد مجموعات المحادثة «الواتسبية» أو القنوات «التِّلِقْراميَّة»، دون أن يشتغل قلبه بالتفكير في طرق إعادة إنتاج ما يحصِّله عبر برامج التواصل الحديثة .. كانت تلك اللَّحظات من أشد لحظات تحصيله طهرًا وصفاءً، كانت النيَّةُ أحسنَ تجردًا، والهمَّةُ أكثرَ صدقًا، والهمُّ أمكنَ انجماعًا، والعزيمةُ أكثرَ نفوذًا.

كان الوقتُ خالصًا للطلب والتحصيل، خالصًا لمتين العلم، قبل أن تكدِّر صفاءَه برامج التواصل .. والآن، فقد اضطرَّه الأمر إلى أن يكون كلُّ شيءٍ مكدَّرًا لا صفاءَ فيه، شائعًا لا خصوصيةَ فيه، أو هكذا أحبَّ له أن يكون.

كان (الخروج) جامعَ المعوقات عن التحصيل، فإذا أغلق الطالبُ دونه بابَ مكتبته تخلَّص بذلك من كل العوائق .. والآن، فقد أصبحتْ حياتُه كلُّها خروجًا، ولو كان في جوف كتابه.

ولا يؤرِّقني شيءٌ حين أُجرِي خاطري مع هذا الموضوع كما يؤرِّقني التأمُّل في المآلات، ورميُ البصر إلى عواقب الأمور، ولطالما تذكرت قول عروة بن الزبير (٩٤هـ): (إنَّا كنا أصاغرَ قوم، ثم نحن اليومَ أكابرُ، وإنَّكم اليوم أصاغرُ قومٍ، وستكونون كبارًا، فتعلَّموا العلمَ تسودوا به قومَكم، ويحتاجون إليكم)[1].

أَدْرَكَ عُروَةُ ذلك، فجمع همَّه وتوفَّر على العلم حتى بلغ الإمامة فيه، لكنَّ طالبَ العلم إن ظلَّ على ما هو عليه من هذا الجَزْيِ مع ما يصرفه عن مشروعه فلن تفترق حاله في كِبَرٍ ولا صِغَرٍ، ولن يبلغ من علم الشريعة مبلغًا يبلغ التحقيق فيه، ويحتاجه الناس حينَها، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه (٣٢هـ): (عليكم بالعلم، فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يَفتقرُ أو يُفتقَرُ إلى ما عنده)[2].

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٠٩).
(٢) السنة للمروزي (٩٦).